الإسلام دين اجتماعى

للأستاذ محمد الشريف

مدير ادارة بحوث الفنية بوزارة الشؤون الاجتماعية

إن إطلاق كلمة الإسلام على الدين الذى شرعه الله تعالى للناس أجمعين بدعوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، كاف فى الدلالة على أن هذا الدين — وهو آخر الأديان — اصلح نظام اجتماعى فى هذه الحياة .

فلفظ الاسلام يجمع من المعانى ما تستقيم به حياة الانسان أيان وجد وحيثما كان .

فهو مأخوذ من المسالمة والسلام — اللذين هما ضدان للحرب والخصام — وأسلم من السلام بمعنى الخضوع والانقياد ، وفى هذا المعنى جاءت الآية :

" أسلمت وجهى لله " ثم صار لفظ الاسلام علما على الدين الذى جاء به النبى العربى محمد بن عبد الله — صلوات الله عليه وبهذا المعنى ورد قوله تعالى :

" اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا " والإسلام عهد وميثاق يضع به الانسان روحه ونفسه ، وقلبه وقوله ، وعمله ورغائبه ، وغضبه ورضاه فى ميزان الله . ففى الله يحب ويكره وفى الله يرضى ويغضب .

فمن أسلم فقد أسلم وجهه وقلبه لله وأخلص نفسه وقصده لله .

وإذا أسلم المسلم وجهه الى الله فهو المؤمن القوى العزيز — قال تعالى :

" ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين " .

والاسلام على هذا الوجه هو أرفع ما يصل اليه الانسان من شرف الغاية وسمو الحياة .

الدين الاسلامى هو خاتم الأديان السماوية فلا غرو اذا جمع الله فيه ما تشتت من مثل الاصلاح فى غيره من الأديان ولا غرابة اذا اتسعت أحكامه وتعاليمه للناس على اختلاف نحلهم وتباين أصقاعهم وتفاوت أزمانهم وتنوع ثقافاتهم وحضارتهم . شأنه فى ذلك شأن كل عمل ختامى اليه ينتهى الكمال .

جاء الاسلام ينظم شؤون المجتمع الانسانى ويضع أسس الحياة الصالحة فيه ، فاهتم بالفرد والأسرة والدولة .

اهتم بالفرد فاحترم الشخصية الانسانية لذاتها ، فالانسان فى نظر الاسلام هو الكائن الحى ذو الارادة له ميول ورغبات ينبغى ان تحترم وأن يحسب لها حساب ، وما الحرية والمساواة والإخاء الا ثمرة من ثمار نمو الشخصية الإنسانية فى ظل الاسلام وإن ادعى الفرنسيون أنها وليدة ثورتهم وجعلوها رمزا لجمهوريتهم .

فالإسلام هو أول من نادى بهذه المبادئ وأول من حققها فى أكمل صورها .

تحققت الحرية لجميع الناس وبكافة الصور المعروفة لدينا اليوم من سياسية وفكرية ودينية .

أما عن الحرية السياسية فلقد كان الأمر فى الاسلام شورى — أمر بها الله نبيه

الصادق الأمين فى قوله تعالى " وشاورهم فى الأمر " وكانت طريقته عليه السلام فى الشورى أن يأخذ بما أجمع عليه أصحابه ولو كان مخالفا لرأيه ، فإن اختلفت آراؤهم أخذ بما استقرت عليه أغلبيتهم ، وكان خلفاء المسلمين وامراؤهم إذا حدث حادث خطير يتصل بسلامة الدولة أو طرأ شأن لم توضع له قواعد من قبل كانوا فى مثل هذه الأحوال وما إليها يجرون على مبدأ الاستفتاء العام — فيجمعون أهل المنطقة التى يهمها الأمر و يستفتونهم فيه و ينزلون على رأى أغلبيتهم .

ولقد كان اختيار الخليفة نفسه موكولا إلى المسلمين .

وعلى هذه الأسس الديمقراطية ولى الحكم جميع الخلفاء الراشدين ، وأوجب الاسلام على ولاته ألا يبرموا أمرا ذا بال من أمور الدولة إلا إذا رجعوا فيه إلى المسلمين ، بل لقد طلب الولاة ذلك من المسلمين .

خطب أبو بكر رضى الله عنه عقب أن بايعه المسلمون بالخلافة فقال " أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتمونى على حق فاتبعونى وان رأيتمونى على باطل فسددونى أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم ، ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه " .

و يقول عمر رضى الله عنه " ألا إن رأيتم فى أعوجاجا فقوموني بالسيف " .

من هذا يظهر لنا أن الإسلام قد ذهب فى الأخذ بمبدأ الحرية السياسية إلى حد لم تصل إليه الديمقراطية فى أية أمة من الأمم الحديثة .

ولا يختلف موقف الإسلام حيال الحرية الفكرية عنه حيال الحرية السياسية — فقد كانت حرية الرأى مكفولة فى جميع عهود الاسلام محاطة بسياج من القدسية والاحترام .

كذلك سار الاسلام على أسس من التعاليم السمحة حيال الحرية الدينية فلم يرغم أحدا على ترك دينه واعتناق الإسلام .

وهذا ما اتبعه المسلمون فى حروبهم فسمحوا لأهل البلد الذى يفتحونه أن يبقوا على دينهم فى وهذا يقول الله تعالى :

" لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى " .

كما يقول فى كتابه الكريم :

" ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن " .

فالحريات بأنواعها قد كفلها الدين الاسلامى للفرد وقررها فى أكمل صورها وأوسع معانيها قبل أن تخلق الديمقراطيات الحديثة بأكثر من ألف عام .

وكما قرر الاسلام حرية الفرد على اختلاف أنواعها قرر مساواة الناس فى جميع الحقوق — لا تفاضل بينهم إلا بأعمالهم .

" إن أكرمكم عند الله أتقاكم " .

و يقول عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع : أيها الناس إن ربكم واحد و إن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربى على عجمى ، ولا

لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب " .

ويقول عمر رضي الله عنه : " إن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء .

والاسلام الذي شرع المساواة بين الناس قد كفل لهم المواساة على خير وأحسن ما تكون المواساة.

حث الاسلام على مواساة كل ضعيف ومحتاج ، ومريض ويتيم . وأشرب القلوب رحمة بالمساكين . فبشر المتصدقين وأنذر الماسين وخاطب الوجدان داعيا إلى الاحسان .

ولكنه لم يترك الأمر رهن مشيئة الناس إن شاءوا منعوا وإن شاءوا منحوا بل نظمه فشرع الزكاة وجعلها حقا معلوما في أموال القادرين وكما نظم جباية الزكاة نظم سبل صرفها " إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله " .

لم يكفل الاسلام للفرد مساواة فحسب ولا مواساة فحسب ولكنه كفل له كذلك حياة سعيدة يحدوها العلم ويأى عنها المرض . فحبب الانسان في العلم وقاوم الجهل وبغض فيه بل قد أمر الاسلام بطلب العلم وتحمل المشاق في سبيله . قال تعالى :

" وقل رب زدني علما " " هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون " .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يوزن مداد العلماء بدم الشهداء يوم القيامة " .

وغني عن البيان أن طلب العلم غير مقصور على المدارس والجامعات ، كما أن وسائل العلم لا تنحصر في القراءة والكتابة — وإنما العلم هو ما ينير الأذهان ويرفع مستوى التفكير والتدبير.

وكما قاوم الاسلام الجهل قاوم المرض فأمر بالتطهير والنظافة والاعتدال في الشهوات واللذات وحرم على أهل البلدة الموبوءة الخروج منها كما حرم الدخول فيها .

هذه بعض تعاليم الاسلام . وهذا قبس من نوره .

هذه بعض ذخيرة الاسلام وهذا شيء من هداه .

مكث الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاما يدعو إليها الناس ويقرع بها الآذان . مكث يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة التي تصل إلى أعماق النفوس فتبذر بذور الخير وتحث اصول الشر . فلما انتشرت الدعوة وانشغل بها الناس وامتلأت بها القلوب ، بدأ مرحلة التشريع والإلزام وهكذا كان السبيل : الاقناع ثم التشريع . بل كان الاقناع أساس التشريع مع مراعاة التدرج والأناة والبعد عن الطفرة حتى يتهيأ الجو الصالح وتستعد الأذهان فتنفذ التعاليم إلى الصدور والأرواح .

وهكذا تكون الروح الاسلامي : روح الانسانية السامية المتجهة إلى الحق والعدل والمساواة .

وهكذا خطا الاسلام بالبشرية قدما الى الأمام وبوأ الانسان مركزا لم يتبوأه في يوم من الأيام ووضع أحدث نظم الاجتماع والنظام العام .

محمد الشريف